الاحسان الاجتماعي

ايها السادة

يجب عليَّ ان ابدأ كلامي بالاسف لتخلف الاستاذ الكبير الدكتور فارس نمر عن موقفه هذا الذي كان معدًّا له وآسف اكثر من ذلك لانهُ لم يخلفهُ في منصب الخطابة غيري وما اشد الضرورة عليَّ وعليكم في الحالتين جميعًا

ان الاستاذ حين ينتصب للخطابة و يقف لها تلك الوقفة المشهورة لا يكون رجلاً يخطب ولا خطيبًا تعرفونهُ بصناعة القياس والبرهان ولكنهُ جيل يتكلم عن حوادث التاريخ وقضايا السياسة وآيات الحكمة بلسان رجل هو في الحقيقة خلاصة جيل من ارقى اجيال الشرق وهو الدكتور فارس نمر

غير ان المصادفة الغريبة التي قضت بحرمان هذا الحفل ان يحضرهُ ذلك الرجل الحكيم في نفسها التي جاءتنا الآن بالرجل العظيم صاحب الفطوفة محب باشا فكأن كل شيء يأبى الاَّ ان يكون محبٌّ في جمعية الاحسان حتى المصادفة التي تأبى على كل شيء ولقد كانت دعوتي الى هذه الخطابة مصادفة ايضًا فما بين دُعيتُ وما أُجبت الا كما بين السؤال وجوابهِ الحاضر كلمةٌ تجتذب كلمةً وكلمةٌ اخرى تنهض متكئةً وها انا الآن بين ايديكم وما ادري الى هذه اللحظة في اي غرضٍ أُرسل الكلام ولا من اي ناحية اتناولهُ . غير اني سأتلقى عليكم ما استملي منكم وسيكون خطابي كالمدّ والجزر فالماء الذي يمدّ هو الماء الذي يحسر وبالجملة سأجعل كلامي في هذه الجمعية من الجمعية نفسها

ايها السادة . انهُ لعجب اشد العجب من امر واحد هو في الحقيقة الا مركلهُ . ذلك هو فشل الجمعيات الخيرية في بلادنا . ولا ادلَّ على هذا الفشل من قلتها ولا دليل على هذه القلة كانفراد الجمعية التي نحن اليوم في احتفالها وذهابها بمجد التأسيس بين السور بين . وان السابقة في الخير والاتحاد والثبات والاحسان واخلاص النية الها هي فيَّ وحدها

ووجه العجب انهُ اما ان تكون قد تجرَّدنا من حب الخير فلا نجتمع وإمَّا ان نكون لا نحبُّ من الخير فلا نجتمع عليهِ . لا مناص البتة من احدى الخصلتين او من كتيبها . وقد

---

(١) من خطبة ارتجلها حضرة مصطفى افندي صادق الرافعي في الحفلة الصورية لجمعية الاتحاد والاحسان السورية في مصر يوم ٢٦ اغسطس سنة ١٩١٠ . وكان الدكتور فارس نمر قد عيِّن للخطابة فلما انهُ الم بعض الخواص فحضرهُ الى الاسكندرية وتعذر عليهِ يوم الاحتفال فانتدبت الجمعية مصطفى افندي للخطابة بدلاً منهُ

لعلم ان قوام كل شيء بنظامه وتصريفه على اصوله الطبيعية التي من شأنه ان يتصرف فيها فاذا كان جمع المال يجري على اصول اقتصادية محضة فان انفاقه كذلك يجري على مثل هذه الاصول وما يجمع للمرء الا ما يفضل عن نفقته . والاحسان انما هو وجه من وجوه الانفاق ليس كالشرف رجل مقصور على سبب الاحسان لان تاريخه في كل ارض مملوء بالنكبات والجرائح التي تعلمنا كيف يُحسن . ودينه في كل صفحة مملوء بالعظات والآداب السامية التي تعلمنا ما هو اسمى واشرف من الاحسان وهو كيف يتأدب في احسانه . فاذا كان كل ذلك وكان ذلك كله صحيحاً لا ريب فيه كما هو الواقع فما الذي يمنعنا نحن الشرقيين من ان نكون محسنين بالمعنى الحق حتى تظهر ثمرة الاحسان فتشبع بطون خاوية وتكسى اجساد عارية وتصلح عقول بالية وتشفى جراح في جسم الانسانية دامية . ويكون كل شيء عاملاً في تكوين الامة تكويناً صحيحاً حتى هذا الذي يقال انهُ اصل الرذائل كلها ويقال فيه ما قيل فيها جميعاً ويقال له الفقر

ليس يذهب باحساننا ضعفهُ وقلتهُ فالقليل لو اجتمع صار كثيراً ولا يُغني ثمرتهُ انهُ هو نفسهُ غير ظاهر فان كل شيء يؤتي نتائجهُ الطبيعية ظهر او خفي وما الاحسان الا ضرب من ضروب الاصلاح الاجتماعي . ولكن الذي جعل الصحيح فاسداً والموجود ضائعاً والثمر منقطعاً وجعل كل امر في ايدينا يكاد يكون عبثاً من العبث انما هو شيء واحد وهو جهلنا كيفية الاحسان

لا ريب انا اليوم امة وانا نتبع الاصول الاجتماعية في كل امورنا العامة وانا نرى باعيننا تحيز الطبيعة وتضخمها لانفسنا ولا ريب انا نجتمع من المجتمعات المتمدنة ولنا وصف طويل في علم الشعوب وان بلادنا ذات بين واضح في خريطة الارض ولكن مع كل هذا لا نزال في طريقة احساننا كأننا في منقطع العالم او في رؤوس الجبال وكأننا لا نزال في معركة الاجتماع الطبيعي التي يكون الانسان فيها جيشاً والحيوان جيشاً يقابلهُ

نحسن احساناً طبيعياً صرفاً من الفرد للفرد كيف اتفق وحيث اتفق . فمن المرجح بكسر لن يأخذهُ لا لكي يعمل بهِ ولكن ليكون ثمرة من ثمار كسلهِ . في العصور الطبيعية تخرج الارض اثمارها بعد ان تكون العناصر كلها قد اجتمعت على انضاجها وعملت فيها اعمالاً كثيرة فيأتي الانسان ليمد يدهُ ولا يعمل عملاً اكثر من ان يمدها . وعندنا تخرج ايدي المحسنين دراهمها فيأتي بعض الناس ليمد يدهُ ولا يعمل كذلك عملاً اكثر من ان يمدها . نحسن مثل هذا الاحسان الذي يذهب بهِ وقتهُ فلا ننتفع بهِ في اصلاح الامة ولا ينتفع بهِ

الفقير نفسهُ لانهُ في الاكثر يفسدهُ ولا يصلحهُ . ولا يوجد البتة في ايدي الناس درهم من دراهم الخرافات يصلح ان يكون رأس مال ولا في خزائنهم رغيف من رغفان المعجزات التي تشبع الجماعة الكثيرة . والفقير متى اكل بالدرهم الذي يحسن به اليهِ فقد شبع من جوع وتهيأ لجوع جديد فيذهب الاحسان والدرهم كما هو ويبقى الفقير والجوع كما هما ايضاً

من اجل ذلك ومما يتصل بهِ فشأنا وذهبت ريحنا وركدنا والناس طائرون . ومن اجل ذلك ترانا احب هذه الجمعية المباركة واكرم رجالها والقائمين بها وامدحهم واعدهم من العظماء

فالجمعية صندوق اموال وهي نفسها صدر يخفق فيهِ قلب الانسانية . والجمعية سبب من امثن اسباب الاحسان وهي نفسها طريقة من افضل طرق التربية الاجتماعية . واكبر فضلها انها من هذه الامة كالنظل في الرمضاء والرقعة الخصبة في الجدب العريض وانها مجتمع صحيح في امة متبددة يمزقها كل شيء حتى الاديان التي تعلم ان الناس اخوة من اب واحد . وحتى السياسة التي تجعل افراد كل امة اعضاء من امرة واحدة . وحتى الادب الذي يضرب مثل الانسان للانسان بمثل اليدين تغسل احداهما الاخرى

مجتمع صحيح في هذه الامة العجيبة التي جمعتها الامم بمعجزات الوطنية والاتحاد والانسانية والعلم والادب والاختراع واعجزت في الامم كلها في قاعدة حسابية غريبة وهي انها افراد ولكن ليس لها مجموع في (الحساب)

ليست العظمة ايها السادة بظهور المرء كما يظهر المثل امام المتفرجين في خلقة مزورة من رأسهِ الى قدميهِ ولا في هذه الاخيلة الذهبية التي تملأ رؤوس الاغنياء كانها ارواح الشعب ولا في نحو ذلك من السخافات (العظيمة) التي ملأت الشرق كلهُ . ولكن العظمة احد شيئين : علم منتج او عمل مثمر . العظمة خلق انساني يوجدهُ العلم او يوجد هو العمل الانساني العظيم . فان لم يكن علم صحيح ولا عمل صحيح فاجمع بين الماء والنار قبل ان تجمع بين النفس والعظمة . قد ترى الرجل من عظمائنا وهو من تعاظمهِ لفافة او منشيهِ او جاههِ او لحسبهِ كأن رأسهُ صندوق من صناديق الوسيقي وكأن كل حركاتهِ وكلماتهِ انما توقع توقيعاً منتظماً مع (النغمة) التي تخرج من هذا الصندوق ومع ذلك فلا اكرمهُ ولا اجد لهُ في نفسي من المنزلة ولا احفل بتلك العناصر الاربعة التي انشأت عظمة من الذهب او المنصب والجاه والحسب الا كما يكون في نفسي لبعض قطع من الخشب والحديد والمعادن والنحاس وهي العناصر التي تصنع منها الادوات الموسيقية

العظيم ايها السادة ذاتٌ مبقية على سنن وما دام كذلك فهو عظيم في خلقه وفي عمله ولا يسلب هذه العظمة منهُ الا الموت . على ان التاريخ يقضي على الموت فيستلبها منهُ ويحفظها لصاحبها العظيم ثم ينفض عليها صبغة الخلود فاذا هي حياة ثانية لا من بين الاحياء الخالدة التي لا تموت الا حين يموت الموت . واذا كانت الذات مبقيةً على مبدإ فيستحيل ان يسقط الرجل العظيم وذاتهُ ثابتة

وعلى هذه الجهة اتفاعل بمستقبل جمعية الاتحاد المباركة لانها مظهرٌ من مظاهر الاخلاق الفاضلة في نفوس القائمين بها . فهي بدء من الابنية الراسخة ولكن انظروا الى احجارها الخالدة فان كل حجر انما هو المعنى الانساني الذي تنطوي عليهِ نفس الرجل العظيم

ايها السادة . عندنا رجال كثيرون ولكن ليس عندنا مبادئ ثابتة . فالذي ينقصنا انما هو المبدأ . والرجل اذا لم يكن على مبدإ فهو من يوم يولد الى يوم يموت انما يسكع في طريق الاقدار ليقطع مسافة ما بين مهدهِ ولحدهِ . وقد تكون هذه المسافة طويلة او قصيرة ولكنها على كل حال ليست الا طريقاً من طرق الموت . ثم يذهب من الدنيا وكل ما بقي لهُ فيها حجر من الاحجار اذا وُجد من ينظر فيهِ واجد من يعرف انهُ كان في هذه الدنيا رجل اسمهُ فلان وهذا قبرهُ

الحياة شيء اسمى من قطع العمر كالحيوان في ايجاد قبر من القبور يكون لهُ اسم ولقب وتاريخ . كلٌّ منا حين يعتزي يقول عن نفسهِ كذا انهُ سوري او مصري فما الذي صنع هذا القائل لمصر او سوريا ؟ الا ان البلاد لا تعرف الناس باسمائهم . وطبيعة الاقليم لا تميز بين انامها وحيواناتها . فمن الجمهور والبغال وصنوف الحيوان ما يقال فيهِ سوري ومصري ايضاً . ولكن الاوطان تعرف ابناءها باسمائهم وطبقة الفرق بين الانسان والحيوان انما هي طبقة تاريخية لا غير

قولوا في الشرقي على العموم انهُ من بني آدم فقط . ومتى وجدتم رجل المبدإ الذي يظهر مبدأهُ في عمله والذي لا يعمل الا ليتم تاريخ امة وليكون صفحةً من كتاب مستقبلها والذي لا يخرج من الدنيا حتى يترك من فضائلهِ المنسوبة اليهِ شخصاً معروفاً يسمى باسمهِ ويلقب بلقبهِ ويؤرخ بتاريخهِ — متى وجدتم هذا الرجل فقولوا فيهِ حينئذٍ بل دعوا بلادهُ تقول انهُ سوري او مصري . من اكبر عيوبنا اننا لا نعرف الخلق العام الذي يجانس بين افراد كل امة ولا نجدهُ الا في افراد قليلين منا وهو الذي تقوم عليهِ الوطنية . ومن اجل ذلك ليست لنا امة اجتماعية ومن اجل ذلك لا نجد . فقدنا الخلق العام او المبدأ الاجتماعي الذي يرمي

لانشاء المستقبل وترفية الحاضر وحفظ الماضي فصارت الصلة بين الفرد والفرد من الامة الواحدة صلة لفظية لا معنى لها . او لستم ترون انفسكم كما هو مشهود عنا يرأي بعضنا بعضاً حتى في الحق ويجانب بعضنا بعضاً حتى في الواجب وليس منا من يقدر ان يقول دائماً للباطل « لا » وللحق « نعم » ؟ اقول « دائماً » ولا اريد معناها الصحيح لان قيمة كل شيء تعلو وتنزل عندنا بحسب الاحوال حتى الكلمات التي لا تعلو ولا تنزل . فان شئتم فاعتبروا معنى قولي « دائماً » غالباً او بعض الاحيان لان الشرقي قد فقد الخلق الثابت فلا ثبات لهُ على شيء ولا ثبات بشيء معهُ ولولا ان اسماء الفضائل من اللغة وان هذه اللغة ثابتة في كتبها التي تحفظها لكانت اكثر اسماء الفضائل اليوم عندنا هي نفس اسماء الرذائل

انظروا ايها السادة الى الرجل الانكليزي الذي هو نتيجة التاريخ الحاضر انهُ لا يثق بثلاثة ارباع الارض التي تملكها دولتهُ كما يثق بقدر انملة في باطنهِ فالارض كلها وهي تدور على محورها وتنقلب بالتاريخ اجيالاً ودولاً ليست في عين الانكليزي اكبر من قلبهِ الذي يخفق بين جنبيهِ . الارض لا تحفظ لهُ فضيلة ولكن فضيلة تحفظ لهُ الارض

كل انكليزي قد يراهُ الناس معسوباً من معادن بلادهِ حتى الفحم الاسود . ولكنهُ يرى نفسهُ انكليزياً ولا يبالي ما وراء ذلك . ثروتهُ كالحديد المصمت لا يبعث لهُ صدى لانهُ للعمل والحمل والثبات والاستقرار . واذا كان الشرقي حديداً ايضاً . . . فهو كالجرس سواء كان في الاعلى ام في الاسفل ليس الا ان يهتز ويصيح بالاصوات الرنانة من جوفهِ الفارغ . . . يعمل الواحد منا عملاً ضئيلاً او عملاً لا قيمة لهُ ليملأ الدنيا كلاماً وعملاً ماضيهِ فخراً وعملاً رأسهُ بهذا النوع الذي يسمونهُ جنون العظمة وما ذلك من جهلنا لقيمة كل عمل ولكن من عجزنا عن اكثر الاعمال النافعة ومن مجازفتنا بالاوصاف رياء ومجاملة . وقد ذكر الرواد الذين ضربوا في مجاهل الارض انهم رأوا قبيلة من قبائل الزنوج كان احمل وسام تسطع عليهِ الشمس في صدر ملكها علبة فارغة من علب السردين

هي علبة من علب السردين الفارغة التي يطرحها افقر الناس في الطرقات وهي قطعة من الصفيح قد لا تكون لها قيمة ولكن ذلك لا يمنعها ان تكون وساماً في صدر الملك الزنجي ومتى قلنا (الملك الزنجي) فكأننا قلنا الزنجي فقط لان اوصاف المتوحشين متوحشة ايضاً فلفظ الزنجي يأكل لفظ الملك وكذلك اوصاف الضعفاء وكذلك اعمال الشرقيين

لا تظنوا ايها السادة اني انتقص الشرق واهلهُ وتاريخهُ كلا ولكني اصف عيوباً لا يجعلها من اخلاقنا انها عيوبنا ولو سُئل افضل رجل شرقي عن احسن فضيلة فيهِ لكان

الى شرقية . ولو سئل ارذل رجل شرقي عن اقبح رذيلة فيه لقال ايضاً انها شرقية فهذا الشرق الذي هو مهد الحضارة هو كمثلث مهد الاديان ومبعث الشمائل . لكن اهله قد اضاعوا نفسهم واضاعوه . فاذا رأوا الفضيلة قالوا غربية واذا رأوا الرذيلة قالوا شرقية واخذوا يكبّ ذنب على الشرق كأن الارض تنبت الرجال وتهبّ في العمل وتوحي اليهم المخترعات وكأننا نريد ان تكون هذه الارض مثلنا في التقليد . فالبحر يهزّ امواجهُ ويجب على الارض ان تهز اهلها ليخبطوا على ساحل الجهالة

ما تقدم الغربيُّ وجرى مسرعاً لان ارضهُ من المطاط ولا تأخر الشرقي وجرى متعثراً لان ارضهُ من الصفيح . ولكن اكبر رذائلنا اننا لا نعمد لاننا نجهل التربية الاجتماعية وقد تخلقنا بالاخلاق الفردية فصار الالف منّا واكثر من الالف لا يحسنون عمل اثنين متحدين . الجبل تصعد عليهِ مائة الف قدم شديدة الوطأة فلا تؤثر فيهِ ما تؤثر النملة والنملة مائة الف ساعد قوي فتزيلهُ عن مكانهِ لان طبيعة الاقدام غير طبيعة الايدي . فان لم نجتمع ونأخذ انفسنا باصول التربية الاجتماعية فلا ننتظروا من الشرقي ان يعمل عملاً

العقل والدماغ

لم يميز الفلاسفة القدماء بين العقل والنفس فجعلوهما واحداً وقالوا ان العقل نفحة الهيّة ونسمة خير هيولية فتشوش عليهم البحث وتاهوا في مجاهلهِ ولم يصر البحث في فلسفة العقل علميّاً مستنداً الى اركان مكينة الا بعد اتساع المعارف في علم الطبيعيات والكيميا والتشريح والفيسيولوجيا التي اتسع بها نطاق المعارف

ويسير الفلاسفة الآن في بحثهم على طريقة تخالف طريقة الاقدمين ولا تبعد كثيراً عن حدود العلم وهي طريقة القياس فيقرنون الشخص المطلوب معرفة قوة ذاكرته وبالتدقيق معرفة هيئة من هيئات ذاكرته نظرية فلسفية او شذرة من كتاب او جريدة ويطلبون منهُ ان يعيدها على قدر ما يستطيع من قربها الى الاصل او يكلّفونهُ بان يميز الاثقال والاصوات والالوان القريبة بعضها من بعض فيحكمون على دقة حسهِ او لمسهِ او سمعهِ او بصرهِ . وفي طريقة لا تفي بالغرض تماماً ولا تصدق الاَّ في حدود معلومة وربما لا تصدق على كل انواع الحس لانهُ يصعب غالباً قياس حس في شخص واحد ومقابلتهُ بالدقة مع مثلهِ في آخر ووضع نسبة عددية بينهما عدا عن ان البحث فيها يقتصر على الظواهر الخارجية بدون التفات الى